

528- يوم إبداعى الشخصى... حدث من واحد وأربعين عاماً!

قبل النص

حدث أثناء مراجعتى "تجارب" (بروفات) "كتاب العلاج النفسى من خلال الإشراف عليه" الذى جمع أول ثلاثين نشرة من باب "التدرب عن بعد" فى نشرات الإنسان والتطور أننى لاحظت أنه ورد فى الحالة رقم (17) حالة ذلك الصبي الذى سرق من أمه مبالغ كبيرة من النقود (عدة آلاف). وكنت أرد على مداخلة حول هذه النشرة تقول: أن هذه السرقة، ومن الأم دون غيرها، قد تكون محاولة من جانب الصبي أن يعلن أمه أنها لم تعطه حقه فى الرؤية أو الدفء أو الحنان أو الاعتراف، رددت على الصديق المعقب بأنى أوافق رأيه، ثم تذكرت أننى قد خطر لى مثل هذا التأويل لهذا العرض (السرقة من الأم بالذات) فى أول عمل لى، شبه قصصى باسم "عندما يتعري الإنسان"

كنت قد خاصمت هذا العمل طويلاً حيث تصورت أن به من "الحكمة" و"الخطاب المباشر" أكثر مما به من التشكيل والإبداع، رجعت إلى هذا العمل الذى لم أقرأه، برغم أنه قد أشاد به - شفاهياً - كثيرون من بينهم محمد ابني والناقد الحاذق يوسف الشارونى. أما أنا فكانت دائماً أرفض الإشارة إليه، أو الإقرار بقيمته للأسباب السالفة الذكر، رحت أبحث عن الحكاية التى أشرت بها فى ردى على الحالة (17) فلم أجدها (حتى الآن).

فوجئت وأنا أفعل ذلك بالمقدمة وكأنى كتبتها اليوم، مرة ثانية مضى على كتابتها 41 عاماً واحد وأربعون عاماً، فوجدتها كأنى أقدم بها نشرة الإنسان والتطور (نحْن الآن فى العدد 528) وكأنى لم أغير منذ هذا التاريخ (هل هذه ميزة أو عيب)؟

قلت أختار من هذا العمل إحدى هذه الحكايات القديمة وأنشرها هنا اليوم (يوم إبداعى الخاص) لكننى حين مررت على المقدمة مرة ثانية شعرت أنها أولى بالنشر، بالرغم من أنها ليست إبداعاً صرفاً.

كتبت هذا الكتاب على نهج "كليلة ودمنة" أقدم به لكل قصة مغزاهاً وهدفها، (وكان هذا من بعض ما خاصمت العمل من أجله) وكنت قد صدرت هذا العمل بكلمة برزوية وهو يقول:

" . . . من قرأ هذا الكتاب، ولم يفهم ما فيه،
 ولم يعلم غرضه ظاهرا وباطنا، لم ينتفع بما بدا له
 من خطه ونقشه، كما لو أن رجلا قدر له
 جوز صحيح لم ينتفع به إلا أن يكسره"
 برزويه (رأس أطباء فارس)
 كليلة ودمنة

اطماننت بعد واحد وأربعين سنة، وتصورت أن أصدر قول
 برزوية لكل من يتهمنى بالصعوبة أو الغموض.

من المقدمة

.....

على لسان الخيوان تعلمنا الحكمة، وقال بيدبا الفيلسوف
 لدبشليم الملك حكمة الأمس. .
 وحكمة اليوم أبعد منا وأصعب تحقيقا... فهي أشهد اختلاطا
 بالوهم من أى وقت مضى، وبذلك فهي أقل تحديدا ووضوحا.

.....

وقد حاولت أن أبحث عن حكمة اليوم في حديثي مع أصدقائي
 المرضى ووجدتها في كل مرة بلا استثناء، وحين كنت أعجز أن
 أراها، كنت أعلم أني لم أفهم لدرجة كافية، أو أنه -
 صديقي المريض - لم يعان لدرجة كافية. .

وسأحاول في هذه اللقطات أن أعرض بعض زوايا من صور
 الإنسان حين يتعرى ليهم على وجهه باحثاً عن حقيقة ذاته،
 وإني إذ أعرض هذه الصور التي لا تصف إنسانا بذاته، أرجو أن
 يقبل القاريء ابتداء صداقه أصدقائي، فهم أعز عندي من أن
 أعرض صورهم إلا على أصدقاء، رغم أنه لا توجد لقطة واحدة
 يمكن التعرف على صاحبها الحقيقي احتراما وعهداً.

قال أحد هؤلاء الأصدقاء، "الفتى الذى اتضحت رؤيته
 وأستقام على الطريق":

- أما وقد انتهى بنا المطاف، فهلا حدثتني عن بعض ما علمت
 من أمور النفس وأحوالها لعلني أتعلم منك ما لن أجده عند
 غيرك، وربما نفعت به غيري.

قال الحكيم:

- أما عما رأيت فهو كثير كثير، ليس أكثر منه إلا ما لم
 أراه، أما ما عملت فهو أقل مما رأيت فليس كل ما رأيت

علمته، كما أنه ليس كل ما علمته أو تعلمته رأيته. فكم يرى العالم - مهما علم - رؤيا لا يجد لها في علمه تفسيرا، وكم يبحث عن حقيقة تصورها قانونا فلا يصادفها فيما يرى أبداً، وليس هذا نقصاً في قدرته، ولا هو قصور في علمه، ولكنها طبيعة العلم. وتقلب صور الحقيقة، وما دام العلم ليس له نهاية في أي حال - وخاصة في هذه الأحوال - فاجمال يتسع لكل ما يقال.

أما أن نتعلم مما أقول:

فهذا مما أراه جائزاً ولا أحسبه قاعدة يمكن إطلاقها، فأحوال النفس لا يتعلمها الإنسان من الكلام، وقوانينها لا يصدر بها أحكام، وعلينا أن نقيم الحقيقة - أو المعرفة التي نتصورها حقيقة "الآن" - بقدر ما تحمل اللحظة الحاضرة من إدراك الأمور، بكل ما أتيج لنا من وسائل حالية. ولكن علينا أن نحمل أيضاً تفتحاً دائماً لكل جديد، ولتكن التجربة هي الأصل في كل حال.

تجارب الإنسان الفرد لا يعدها تجارب الغير، وإنما جعلت معرفة تجارب الغير خيراً جواز النفع منها لا للاقتداء بها، فالإنسان هو ذاته بكل معالمها الخاصة، ولا بد أن يعرف نفسه في هذه الصورة الفريدة. وأن يحقق وجوده كوحدة مستقلة في تفاعل دائم مع الدنيا الصاخبة بالناس والأشياء، ولابد أن يهتدى في ذلك بما يتعلم ويعلم، ولكن عليه أن يذكر دائماً أن الحقيقة الأساسية هي أنه "إنسان فرد ليس كمثله أحد آخر" وأن وجوده جزء من وجود الآخرين، أنه بغير تحقيق هذه الذات لن "يكون" شيئاً، ولا حتى في نظر الآخرين.

وأما ما تسمعه مني ولا تجده عند غري، فأعلم - بي:-

أنه ليس عندي جديد غريب، وأن الذي يستطيع أن يرى كما أرى، ومحس كما أحس فإنه قد يجد كل طبيعي غريب وكل غريب طبيعي، ثم هو لابد سيجد مفتاح الحقيقة، ولعل العثور على مفتاح الحقيقة هو الطريق الأول أو الأوحيد، لأن الحقيقة ذاتها غير ثابتة ولا هي معدودة ولا محددة، وربما كان السعي إليها هو غاية تحقيقها في نفس الوقت، فليس المهم أن ترى المنار الذي يضيء، ولكن المهم أن تمشي في نوره، وليس ضرورياً أن تصل إلى الشمس حتى تتمتع بضيائها ودفئها... ولذلك فإنك مهما سمعت ووعيت فستجد أن ما سمعت هو القليل وأن ما ستلاقي بعد ذلك هو الكثير الذي لا تنتهي حكمته ولا تبلى جدته.

وأما أن "ينفع حديثنا هذا غيرك"

فهذا هو ما يدعوني إلى الاستجابة لمطلبك، ولكنه هو أيضاً ما يخوفني من الحديث معك،

لأن العلم الذي لا ينتفع به أكثر الناس لهو أمانة ضائعة، وخازنه كسارق الجوهرة الذي لا يستطيع بيعها، فيحبسها ويعيش في فقره مع أوهام المطاردة، وخدعة امتلاك شيء ثمين وما هو بثمين.

على أن الكلام كالسكين ذي الحدين: قد يأتي منه الضرر من حيث ترحو به النفع، وبما أنه ليس هناك وسيلة للتفاهم أفضل من الألفاظ في مجالنا هذا، فلا بد من الحذر ونحن نرسل الكلام، ولا بد من الحرص وأنت تسمع الخبر،

ولتأخذ منه ما تحس أنه وافق مكانا صالحا في فكرك، ولا تقحم على نفسك ما لا ترتاح إليه طبيعتك، وبهذا ينتقى كل من الحديث ما يصلح له أو يصلح به، لأنه ليست للتجارب قواعد ثابتة وإنما هي أمثلة تنفع أو لا تنفع، فانك انما تسمع مني جانبا من رؤيتي لكيان ما، في لحظة ما.. ثم إن هذه الصور قد تصل إليك بإحساس حي يجعل إدراكها كواقع قائم أمر سهل ومفيد؛ أو هي قد تظل ملساء مسطحة لا تدرك منها إلا بعد الصورة. وفي هذه الحالة فلا فائدة منها وما هي إلا رواية تتناقل مثل بعض القصص الجوفاء...

أما أن تنفع الناس بدورك، بما تسمع وتعي،

فإنك إنما تفعل ذلك إذا أدركت ما راق لك فعشته وتمثلته، ثم حفظته ووعيته، ثم كان جزءا من كيائك ونفسك... فإنه لا محالة ينضح بالخبر على غيرك، وإنما تنتشر الحكمة إذا كانت هي الحقيقة، وإنما تتأصل الحقيقة إذا اختلطت بالذات لتصبح إيمانا، ثم يكون الايمان عملا طبيعيا تلقائيا سلسا.

على أني يا بني لا أطمع في الكثير،

فإن بهذا الحديث ألقيت في بحر الركود والظلام حجرا شحنته بكل ما أحمل للانسان من حب، ومهما كان الحجر صغيرا فأملئ أن يهز الصفحة الراكدة فتنزاح دائرة صغيرة لتصبح دوائر متتابعة.

فاذا خرجت من هذا الحديث كله ببضع من الناس مثلك يا بني، اكتملت يقظتهم إذ هزتهم الحقيقة فساروا على الطريق حتى نهايته... أو إذا أثرت به علامات استفهام وتعجب عند بضعة عشرات آخرين يعقبها أنه "ربما"... أو حتى إذا هيجت به الرفض للقديم والجديد معا عند بضعة مئات، إذا تم هذا أو شيء من هذا فقد حققت ما أردت.

كما أوصيك - بني- ألا تتعجل الحكم على الأمور، فأنت لن تدرك أول الحديث إلا بآخره، لأنه حديث يكمل بعضه بعضا، فأسألني يا بني ما شئت وسأجث لك في جعبتي عما يشفي غليلك.

ثم رحمت أغلب بين الحكايات لأختار إحداها لتمثل إبداعا مضى عليه هذا الزمن كله.

.....

وحين احترت أن أختار أيها أولى بالنشر.

أجلت نشر النص إلى الأثنين القادم.

عذرا